



الطائفة العلوية في سوريا وصراع البقاء "الأسد أو نحرق البلد" ليس مجرد شعار تباهي به المنحبكجية الموالون للعصابة الأسدية.

بل هو كلمات تحمل وراءها جثثاً قتلها الجهل، وسعى لدفنها خلف ذاكرته وحاول جاهداً أن يكون النسيان مثواها الأخير. اصطدم هذا الشعار منذ بداية الثورة السورية بشعارات الحرية التي نادى بها أبناء الشعب السوري الذين رسموا لوحة أمل وردية و ساروا على ضوء مشاعل الصبر كي يحققوا حلماً بعيداً في خاطر الوجдан آن له أن يتجسد واقعاً ملموساً.

وظلّ الموالون للعصابة الأسدية يغلقون كلّ الدروب التي حاول طلاب الحرية أن يسلكوها وكلّما شقّوا طريقاً في جبال المستحيل وجدوا حماة شعار "الأسد أو نحرق البلد" واقفون في آخر الدرب فاتحين أذرعهم لاصطيادهم والفتوك بهم وأكثراهم لم يكن على يقين تام بما يملك من حياثات الفتوك لكنهم كانوا يؤمنون بنبل التهمة التي أصقّوها بطلاب الحرية (تهمة العصابة المسلحة المخربة) وأصبحت هذه التهمة مزيجاً من الغباء وغريزة البقاء.

وقالت المجازر وسط توالي صمت العالم عنها، وتمادي الطاغية وأعوانه أكثر فأكثر، ولم يكتف بالقنص والاستهداف بالرصاص والمدافع والقاذفات والراجمات بل تعداها إلى استخدام البراميل المتفجرة ذات القوة المضاعفة في الفتوك واستخدام صورايخ سكود البعيدة المدى وتجاوز كل الخطوط الحمراء باستخدامه للسلاح الكيماوي الذي خنق أطفال

حمص، دون أن تحرك مشاهد القتل والدمار الضمير الجماعي للعالم الإنساني فسقطت كلّ شعارات حقوق الإنسان الزائفة وظهر نفاق المجتمع الدولي لأول مرة جلياً واضحاً.

ولعلّ أسوأ المجازر التي ارتكبها السفاح هي تلك التي استعمل فيها السلاح الأبيض (السكاكين والخناجر) لتعذيب الضحية حتى الموت بصور وفيديوهات انتشرت على اليوتيوب وموقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك)، وأثارت حفيظة كلّ أصحاب الضمائر واستثارتهم إلى حدّ الغثيان، بل إلى حدّ الموت قهراً لهول ما رأينا من فظائع وجرائم وحشية ضدّ البشرية لا يقوى على ارتکابها إلا ذوي القلوب الميتة والضمائر العفنة.

هذّتنا تلك الصور بعنف وأحدثت فجوة كبيرة وانقساماً حقيقياً بين أبناء الشعب السوري بين طائفتين (الموالون للأسد) المجرمون القاتلة والطائفة السنّية التي ينتمي إليها الشريحة الأعظم من الضحايا وتعالت أصوات المطالبين بالثأر والانتقام وحقّ لهم ذلك بعد ما عاشهو ورأوه من فظائع يندى لها جبين الإنسانية.

وقد بدأت ظاهرة الذبح بالسكين في حمص تحديداً في مجزرة بابا عمرو وتلتها مجزرة كرم الزيتون ثم الحولة والترسمة والقبيح وداريا و ليس آخرها مجرزة حلفايا التي مزجت الخبز بالدماء الطاهرة ومجزرة تلبيسة والمليحة والقائمية تطول وتطول.

ومن أتعجب الأمور التي يكاد العقل يرفض تصديقها هو كم الحقد والعنف والكراهيّة التي عبر عنها الموالون للأسد بأفعالهم وأقوالهم والتي تأبى وحوش الفلاة أن تأتي بمثلها، فما هي تركيبة هؤلاء القاتلة وما هي دوافعهم للإجرام؟ من أيّ تربة جُبّلت نفوسهم ومن أيّ معدن قُدّت؟

وهل هو سلوك عدواني فطري موروث في الذاكرة الجمعية لأبناء الطائفة الموالية أم هي حالة تشوّه جينات وغسيل أدمغة تعرضوا مدرّسة تعرضوا لها فحولتهم إلى وحوش كاسرة؟

يذكر الكاتب عزام أمين محمد أربع دوافع نفسية خلف ارتكاب تلك المجازر باسم الولاء للأسد و هي:

1- التماهي بالمعتدي

2- الخوف من المجهول

3- الخوف من الحرية

4- الخوف الرهابي من الطائفة السنّية.

إذ يتماهي الموالون في شخصية الأسد ويجدون فيه وسيلة لرفع مستوى التقدير الذاتي المنخفض أصلًا لديهم نتيجة عهود من القمع والرضاخ ألغت كياناتهم وشخصياتهم وعزّزت لديهم الشعور بالدونية، فيرون في شخصية المستبعد لهم ردّ اعتبار لأنّا المجرورة والشخصية المشروخة تجلّى في شعار "منحبك" وكلّما ازدادوا عبودية له ارتفع تقدير الذات عندهم لذّا يحاربون كلّ ما يتناوله ويسيء إليه ويدافعون عنه دفاعاً مستميتاً ويفخرون بالعبودية له التي تظهرها بوضوح صور السجود على صورته وتقبّلها ووضع البوط العسكري على رؤوسهم والتباكي به، وكلّما ازداد طغيانه واستبداده ازدادت حالة انقسام الشخصية لديهم بين الإعجاب به نتيجة لضعف تقديرهم الذاتي والتعلق به كمخلص وبين كرهه والخوف منه الذي يحاولون إخفاءه وتجاهله.

وهذا الشعور يعتبر من أقوى عوامل مقاومة التغيير والتحرر.

وانطلاقاً من فكرة الانتماء للأقليات التي عمل حافظ الأسد على ترسّيخها في أذهان فئات الشعب السوري المختلفة، وعلى بثّ كلّ عوامل التفرقة والكراهيّة والخوف من الأكثريّة الساحقة، يعاني الموالون للأسد من فوبيا الخوف من المجهول، الخوف على مصيرهم كأقليات سورية، والحرص على استمرار التمتع بالحقوق والميزات والمصالح التي كانوا أول المستفيدون منها في بلد هضم حقوق الأكثريّة وهمّشهم لصالح الحفاظ على سيادة الطائفة وهيمتها، وكلّ أنظمة الحكم

المنبسطة من الأقليات عمد الأسد إلى توطيد حكمه بالتحالف مع القوى الخارجية ضد مصالح القوى الشعبية الداخلية، فباع الجولان لإسرائيل استرضاء لها ولقوى التحالف الاستعماري الغربي، وتحالف مع حزب الشيطان وإيران ذات التوجه الشعوبي الفارسي الصوفي وأسس له امبراطورية من التحالفات الاقتصادية الأخرى مع عدد من دول العالم وكلها في سبيل دعم حكمه المتهالك الضعيف الذي لا يستند على شرعية داخلية ورضا شعبي جماهيري.

كيف يقبل أبناء الطائفة الموالية للأسد التخلي عن هذه الميزات التي منحهم الشعور بالأمان المزيف ففضلوه على الحرية الفردية والكرامة والكبرياء؟

إن الحاجة للأمان هي ثانية الحاجات الإنسانية في سلم أبراهام ماسلو (1943) الشهير وهي تأتي بعد الحاجات الفسيولوجية الأولية وقبل حاجات الحب وتقدير الذات وتحقيق الذات وال الحاجات المعرفية.

وهذا ما أدركته تماماً الأنظمة الديكتاتورية عندما لجأت للمعادلة الشهيرة "الحرية أو الأمان"، فأشاعت وبطريقة ممنهجة الفوضى والجريمة عندما انتفضت عليها شعوبها ثم اخذت القمع والاستبداد وسيلة لفرض الأمان مقابل مصادر الحريات. لهذا أصبحت الحرية تلك الشبح الذي يخسونه كما يخشى الأطفال "البعع" في القصص الطفولية والخيال الطفولي ولهذا سمعناهم مراراً يكررون عبارة "هاري هي الحرية اللي بذكرين إياها" مع محاولة إيهام الضحية أن الحرية لا تليق بها وأنها وبال عليهم ستودي بحياتهم.

فأصبحوا بعد عهود من الرضوخ والانقياد الأعمى للرمز القائد عاجزين عن التحرر والانطلاق في فضاء الحرية الربح كطفل يمسك يد والده في زحمة الأسواق بقوة وتشبث ويخشى إن أفلتها أن يضل الطريق ويتوه في الزحمة.

والحرية مسؤولية تتطلب تقديرًا عالياً للذات وثقة بالنفس وإرادة فولاذية ومقومات علمية وثقافية وضوابط شرعية قانونية لا يتمتع بها الموالون للقائد بالطاعة العمىاء.

كلّ هذه العوامل اجتمعت لتكرس في عقلية المؤيد الخوف من الآخر الذي يتجسد في الطائفة السنّية ولاشك أنّ الأسد قد أتقن لعبة تأجيج الطائفية بجدارة وخلق الفتنة عامداً متعمداً وأثار مخاوف الأقليات تجاه الأكثريّة تجلّت بوضوح في عبارة السخرية من الشيخ العرعور وقناة صفا والوصال ووصف الثنائيّن الأحرار بالرعاعير، وملحقتهم وتعذيبهم والتنكيل بهم أصبحت متعتهم اليومية، ويعرف علم النفس الطائفية على أنها السلوك العدواني تجاه شخصٍ ما أو مجموعةٍ ما بسبب انتقامهم الديني.

وكلمة سلوك عدواني تعني هنا: فكرة سلبية، موقف سلبي مُسبق، صورة سلبية نمطية، شعور سلبي، ...

ويشكل العدوان الجسدي واللفظي تعبيراً عن هذا السلوك شهداً مراراً في فيديوهات التعذيب حتى الموت التي مارسها المؤيدون ضدّ أبناء الطائفة السنّية عموماً وكلّ من ثار ضدّ حكم الأقلية.

وتبقى طائفية الأكثريّة ردة فعلٍ على حالة يشعر بها الفرد بالغبن والظلم تزول بزوال هذه الحالة، بينما طائفية الأقليات فهي الأكثر شراسة وعنفاً وعدوانية وناتجة عن خوف عميق كامن في المساحة اللاشعورية من الذاكرة الجماعية.

وكي يبرر المؤيدون موقفهم هذا لجئوا إلى أربع استراتيجيات واضحة وهي:

1- تبني نظرية المؤامرة حيث يدعون أن الثورة قامت بفعل موجة خارجي مدروس ومدبر يضمّر إرادة خفية في زعزعة أمن الوطن والمواطنين ولم تقم من الداخل فقالوا أن ما يحدث في سوريا هو مؤامرة كونية وأنكروا وجود الثورة على أرض الواقع بادعاء (الفركة) الإعلامية تجسّدت في أعلى صورها في فكرة المجرم القطري.

وبالتالي إلقاء التهم على المفبركين والمدبرين وتحميلهم مسؤولية ما يحدث كاتهام (سعد وحمد وبندر....) وأصبح تعريف الشريف هو كل من يدافع عن النظام والخائن هو من ثار ضد النظام.

2- تبني فكرة الإنكار لما يحدث من خلال إشاعة شعار "الأزمة خلقت وسورية بخير" وإنكار المظاهرات والاحتجاجات

وإظهار الشعب السوري وكأنه يعيش حياة طبيعية.

ساعد الإعلام السوري الرسمي كثيراً في تجسيد هذه الفكرة من خلال تجاهله للأحداث واستمرار بث البرامج التقليدية على القنوات الفضائية وكأن البلد لا يعيش حالة حرب حقيقة.

3- عمدوا إلى استراتيجية قلب الحقائق باختراع نظرية العصابات المسلحة.

كل ما يحدث في سوريا من قتل وترويع ودمار هو من فعل العصابات المسلحة وكل الضحايا هم ضحايا العصابات المسلحة ولا ينسون أن يتباكون عليهم ويعنوا في الحزن على تخريب الوطن وترويع المواطنين الآمنين.

4- لجئوا إلى سياسة الانتقائية في نقل الخبر بما كان يخدم نظرتهم وأفكارهم نقوله وما كان مغايراً لها تجاهلوه، فسلطوا الضوء مثلاً على بعض الشعارات الطائفية النادرة في بعض المناطق الساخنة وتجاهلو آلاف المظاهرات التي نادت (واحد واحد واحد الشعب السوري واحد).

و خلاصة القول:

إن كل ما نشاهد من فظائع يرتكبها المؤيدون للعصابة الأسدية نابع بشكل أو آخر من غريزة البقاء، ودافعهم المستميت عنه لا يمكن تفسيره على أنه عشق لا ينتهي، ولعلهم في أحاديثهم السرية يلعنونه ويمقونه حد الموت لكنهم عميت أبصارهم فظنوا أن وجودهم مرهون بوجده ولم يدركوا حتى اللحظة أنهم يخوضون معركة خاسرة ويراهنون على بغل خاسر ولعلهم أكثر من سيدفع فاتورة الدم المراق والخراب المتعمد بعد أن يرحل الرمز هارباً بجلده من موت محتم.

المصادر: